حضارة وادي الرافدين في القرآن الكريم
(بابل انموذجاً)
بحث استدلالي في النص القرآني وأقوال العلماء

د.صالح جبار القريشي
كلية العلوم الإسلامية / جامعة كربلاء

أ.م.د.هاشم ناصر الكعبي
كلية التربية / جامعة كربلاء

خلاصة

استخلصنا من البحث الذي بين أيدينا جملة أمور مهمة يمكن الإشارة إليها وكما يلي :

1- ان المواقع والمدن والأقاليم التاريخية والحضارية ما هي إلا صروح قائمة تحكي حضارة شعوبها وأممها ومجتمعاتها وانها سجل عظيم لتلك الحضارات , وعليه فالدعوة قائمة إلى عدم اسقاط هذه الصروح , بل الدعوة إلى بنائها مجدداً هو المعول عليه في إعادة تراث هذه الامم .

2- القرآن الكريم يقف على رأس الكم المعرفي الهائل الذي وصلنا سليماً معافى من التلاعب والتحريف وهذا ما تطمئن له النفوس وتستقر له الضمائر , حيث هو نتاج السماء الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه , فكل نص فيه قد ختم بصدق القول وعظمته , وعندئذ فأن تراثنا وتراث العظماء من امتنا يزهو بذكره مصدَّقاً بين دفتي الكتاب الذي لا يأتيه الباطل ولا ينتابه الشك .

3- وتكون (بابل) التي خصصنا لها هذا البحث قد حظيت بذكرها في هذا الدستور السماوي العظيم ليفصح عنها جلياً , ويطرح عنها الاشكالات , ويرصن أصالتها , ويحميها من كل تهميش , اذ لولاه لفقد الدليل الاكبر على عظمتها وسموها واصالتها.

4- انها دعوة من خلال هذا المؤتمر الكبير ان تحظى (بابل) بعظمتها التي وهبتها لها السماء , وان يكون العربي والعراقي عموماً من الدعاة إلى بنائها مجدداً والحفاظ على حصانتها , والبابلي لاسيما لأنه ابن بجدتها , وعندئذ تكون مسؤوليته مضاعفة في خدمة هذا الصرح الحضاري العظيم .

ربنا لا تؤاخذنا ان نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا اصراً كما حملته على الذين من قبلنا , ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا... وآخر دعوانا ان الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على اشرف الانبياء والمرسلين وآله الطيبين الطاهرين .

Abstract

Drawn from research in our hands, inter alia, the task can be referred to as follows:

1 - The sites, cities and regions of historical and civilization is only Sorouh list tells the story of a civilization of their peoples and nations and societies, and I scored great for those of civilizations, and therefore call for a menu to not drop these monuments, but the call to build once again is relying in restoring the heritage of these nations.

2 - The Holy Quran stands at the head of body of knowledge the tremendous and we arrived safe and sound manipulation and distortion and this is what reassures him self where did not extend to him by the distortion, but is the product of the sky which is not done wrong in the hands of his successor, all what he says may seal sincerely say, and greatness, and then the heritage and the heritage of our nation's great boasts Msqda between the covers of the book, which is not done wrong will not take distortion.

3 - and are (Babylon), which we have allocated this research has received mentioning in this Constitution heavenly great disclosed in evidence, and raises her shenanigans, and Ersn originality, and protected from all marginalized, as it otherwise would evidence has been lost most of its grandeur and sublimity and originality.

4 - it's an invitation through this great conference that are (Babylon) greatness, which donated its sky, to be an Arab and Iraqi generally advocates to build again and the preservation of its immunity, and Babylonian, especially because I'm grandmother, and then the responsibility will be to double in the service of this edifice great .

God Punish us not if we forget or fall of our Lord, we do not carry as his campaign insisted on those before us, our Lord and us what we can not afford it and forgive us and forgive us and have mercy upon us ... The last prayer is praise be to Allah, Lord of the Worlds, and peace and blessings be upon His Prophets and Messengers, and good and pure.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على فخر الكائنات وسيد المخلوقات والأنام نبي الإسلام الحبيب المصطفى محمد بن عبد الله 8 وأهل بيته الطيبين الطاهرين (عليهم أفضل الصلاة والسلام) ومن اهتدى بهديهم إلى يوم الدين وبعد :

فقد امتاز الإسلام عن غيره من بقية الأديان بأنه نظر إلى الإنسان نظرة جديدة اختلفت عما انتهجته المعتقدات التي سبقته في طريقة التعامل مع المجتمعات وكيفية النهج مع الحياة التي عاصرها هذا الدين المتميز .

لذا فقد منحه – أي منح الإنسان – الحرية بشكلها الذي يتناسب مع الكم المعرفي العظيم الذي أفرزته التنظيرات والطروحات القرآنية , فبات من الواجب على هذه الطروحات أن تتميز عما سبقها بأن تكون لها حرية الانطلاق الجديد , فحددت المفاهيم على وفقها وأوضحت بأن الدين أو المعتقد لا يمكن أن يُدرك بالإكراه أو يُستحصل بالقوة فقال جل وعلا : ((لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ))[1].

كما أن هذا الإيمان يجب أن ينصب على العلم والمعرفة , أي انه عدَّ الإيمان لا يصح إلا بعد الإرشاد والبيان وإيضاح الحقائق , وكان هذا المعنى قد دلت عليه الآية المشرفة في قوله تعالى: ((لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ))[2] .

أي ان بيان الرشد من الغي هو الذي يحدد منهج الإنسان في حرية تعامله مع معتقده , ولم يقف هذا التراكم المعرفي في القرآن الكريم عند هذا الحد بل أمر سبحانه وتعالى رسوله المصطفى 8 ان لا يُكْره الإنسان وإن كان كافراً في ان يعتقد أو يؤمن بدين لا يرضاه , وهو القائل جلت قدرته في سورة (الكافرون) : ((لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ))[3] .

وأكد أيضاً بأن هذه الحضارات التي تنشأ بفصل العلم , انما نشأت على الأرض التي هي مهد لحضارات الأمم والتي لم تعد ملكاً لأحد فقال جل وعلا ((وَالْأَرْضَوَضَعَهَالِلْأَنَامِ))[4].

ولما كان لتاريخ بلاد ما بين النهرين وهي حضارة العراق اهمية عظيمة في تاريخ العالم قديماً وحديثاً , أصبح هذا التراث مطمحاً لدول العالم وحضاراتها , واصبحت القوى تتنازع على احتوائه في اكتشاف أسراره ومعرفة مكنوناته لما له أثر بالغ في نفوس الباحثين والرحالة طيلة قرون وأجيال سالفة تمثل أقدم المحاولات في الكشف عن الاثار التاريخية في معالم التاريخ البشري .

لذلك كان كل أثرٍ أو طللٍ أو مدينة من هذا الارث الحضاري يومئ الى كونه محطاً لانظار المكتشفين والسواح لمختلف الأمم والشعوب , فكانت التنقيبات التي زودت المتاحف العالمية بآثارها النفيسة التي عملت بحوض الوادي _ وادي الرافدين _ محطة اشعاع فكري يؤكد بأنه مهد الحضارة البشرية ومشعل التحضّر والتمدن يوم كان الإنسان يأوي إلى الكهوف ويعيش على ما يقتنصه من صيد .

لذلك يحق لبلاد الرافدين ان تفخر وتعتز بهذا الماضي التليد عبر هذه المكتشفات الحضارية الثمينة التي قارعت الزمن واثبتت بأن لهذه الارض حضارة لم تأفل .

ويأتي القرآن الكريم الذي ساد بعظمته على كل من نطق بلسان وتكلم بلغة , فهو كلام الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه , فذكر هذه الحضارة , فكانت (بابل) التي عزّزها وعضّدها وشرّفها القرآن الكريم بذكره لها تصريحاً وتلميحاً باعتباره كتاب الله العزيز ودستور السماء والأرض معاً , فأصبح أصلاً للحضارات في العالم وانموذجاً رفيعاً للاكتشافات الراقية وعاملاً محركاً لهاجس الانتماء الصحيح لمثل هذه الحضارة العظيمة .

وانطلاقاً من هذه الموازين اندرجت هذه الدراسة تحت مبحثين أشتمل الأول منهما : على ذكر تسميات (بابل) في القرآن الكريم حيث تناولنا من خلاله النص القرآني الذي ذكرها , ثم تعرضنا إلى ذكر أهمية بابل وفضلها , والمكتشفات الأثرية والتاريخية فيها وذكر أهمية تلك الآثار تأريخياً وتراثياً .

أما المبحث الثاني الذي تكون من مطلبين فقد بحثنا في الأول منهما ذكر بابل في القرآن الكريم تصريحاً , وأبرز الاراء التي تحوم حول هذا النص الذي صرّح بذكرها .

أما المطلب الثاني فقد تناولنا فيه بابل في القرآن الكريم تلميحاً , وهو يدور حول نصوص قرآنية ذكرت بابل بإيماءات وإشارات تدلل على تلك التسمية وأبرز الاراء حول صحة ذلك .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين والصلاة السلام على سيد الأنام محمد بن عبد الله 8والأئمة الأطهار (عليهم الصلاة و السلام) .

الباحث

المبحث الأول

المطلب الأول : في تسميات بابل وأهميتها وفضلها

ذكرت المصادر بأن أسباب تسمية (بابل) بهذا الاسم كان بسبب اختلاف ألسن الناس إليها فتبلبلت فيها , وان الناس اجتمعت بها وتفرقت منها حتى عدت من عجائب الدنيا السبع[5], وهذا الوصف الذي ورد في قول الدينوري لعله يحمل أبعاداً يمكن استنتاجها منه بأن بابل كانت محطاً لأنظار المجتمعات الإنسانية على مختلف لغاتها وهو ما يستفاد مما ذكره بان ألسن الناس اختلفت اليها وتبلبلت فيها , وان الناس اجتمعت بها , كما يشير مفاد القول انها – أي بابل – عُدّت من عجائب الدنيا السبع وهذا دليل على أهميتها وفضلها , وقد وصفت التوراة تسمية (بابل) بهذا الاسم بأن الرب نزل على ارضها كي يراها فقال ((فلننزل ونبلبل هناك لغتهم حتى لا يفهم بعضهم لغة بعض))[6], ((ولهذا سميت بابل لأن الرب هناك بلبل لغة الناس جميعاً))[7], ويروى ((ان اسم بابل قد تم اشتقاقه من اسم المشتري لأن هذا الاسم باللسان البابلي يعني اسم المشتري))[8] . فـ(بابل) اذن جاءت من تبلبل الألسن التي اختلف اليها وتجمعت فيها .

وقد أطلق على إقليم (بابل) عدة تسميات أخرى وأشارت إليها , وقسم منها اطلقه القرآن الكريم عليها كما سنذكر ذلك في المبحث الثاني من البحث , وقسم آخر أطلقه واشار إليه كثير من العلماء والباحثين والمؤلفين في مروياتهم وأخبارهم وتصانيفهم , ومن هذه الأسماء (كوثى) التي ذكرها هؤلاء وأشار اليها القرآن الكريم .

أما أهمية (بابل) في التاريخ فأن المؤرخين أشاروا اليها بإسهاب وذكروا بأن نوحX هو أول من بدأ بأعمارها وقد نزل بها عقب الطوفان بعد خروجه مع صحبه من السفينة طالباً الدفء, فأقاموا بها وتناسلوا على أرضها وبعد أن كثر عددهم وملّكوا الملوك, وابتنوا القصور والمدن واتصلت مساكنهم بدجلة والفرات , حتى وصلوا من دجلة إلى أسفل (كسكر) ومن الفرات إلى ما وراء الكوفة [9].

واتخاذ نوحX حسب ما أوردته هذه الرواية (بابل) سكناً منحها أهمية تاريخية نظراً للدور التاريخي العظيم الذي حققه النبي نوحX في تغيير الواقع الإنساني نحو بناء المجتمع الجديد منذ عملية الطوفان والى يومنا هذا , كما لا يستبعد ان يكون نوحX قد اتخذ من (بابل) سكناً له بعد ان عَمَّ الطوفان الأرض وبعد ان استقرت الخليقة بعد انتهاء عملية الفيضان الذي ساد اليابسة آنذاك وقيل ان القوم الذين أطلق عليهم اسم (يافث) هم أهل (بابل) الاصليين حيث ((يافث أهل بابل وهم من ولد يافث بن نوح)) وهذه الرواية تستكمل ما أشارت اليه الرواية التي سبقتها والتي أكدت اتخاذ والده نوح X بابل سكناً له.

((وكانت بلاد ما بين النهرين بؤرة الاشعاع المركزية التي أنارت العالمين اليوناني والروماني في الغرب , وامتدت أنوارها إلى الشرق الأقصى في الاجواء دفئاً وحياة , ويرى العلماء اليوم – مستندين إلى ما عثروا عليه من آثار – ان الحضارة السومرية ركن لأهم الحضارات الاسيوية , وان الحضارة التي ازدهرت على ضفتي الهندوس قبل نزوح الهنود اليهما هي حضارة مزيج من سومرية ودرافينية)) [10] .

ولعل ما تناوله البحاثة الاثاري (دروثي مكاي) (Drothy Makiy) بكتابه الكبير من أن لبابل ومعابدها اهمية آثارية كبرى في تحديد حضارة بلاد الرافدين , حيث اعتبر آثار كيش المسماة (تل الاحيمر) لوحدها اكتشافات ساعدت الاثاريين على الوقوف على حقائق كثيرة حيث ذكر ان الوقوف ((على حقيقة هذا التل منذ أزمنة كثيرة أثبتت الآن ثبوتاً جازماً انه من بقايا الزقورة (أنير كدرمة) أي (دار العجب أو المسكن الشهير) وهي الزقورة الخاصة بهيكل (ايلبابا) اله الحرب وزوجته عشتار في كيش)) [11] .

لقد اثبت المستر (مكاي) وهو مدير بعثة متحف شيكاغو على الكتابات السومرية التي ظهرت محفورة على آجر البناء بأن (شامشو آيلونا) 2024 – 1987 ق.م هو سابع ملوك (بابل) من سلالتها الأولى قام بترميم الهيكل والزقورة اللذين أقامهما سلفه (سامولا ايلو)2156 – 2122 ق.م[12] , كما ثبت بان لحمورابي يد في تبجيل مثل هذه المعابد وترميمها في حضارة بابل القديمة[13] , ولعل ظهور ((حمورابي العظيم (2123 – 2081 ق.م) مؤسس اول سلالة في بابل)) [14] كان له اكبر الأثر في صعود بابل إلى سلم الحضارة والرقي, وهو صاحب اكبر حضارة قانونية تشريعية في عالم الحضارات والتي كانت طرازاً خاصاً متميزاً في تنقيح ما سبقه من شرائع وتجميع للمواد القانونية التي قننت قبله , حيث اضاف هذا المصلح الكبير ضمن حضارة بابل العظمى إلى شريعته مواداً غير موجودة عما سبقه من القوانين الوضعية وفقاً لما تطلبته الفترة التي حكم فيها بناءً على ضرورات المصلحـــــة

العامة في بابل آنذاك[15] , حيث سبقت شريعة حمورابي القانونية شرائع اخرى كما ذكرنا التي ابتدأت باصلاحات (اوركاجينا) الذي هو احد ملوك سلالة لكش الأولى وصاحب اقدم اصلاح اجتماعي واقتصادي معروف لحد الآن [16] , التي تم اكتشافها في مدينة لكش عام 1878م التي ترجمها لأول مرة العالم الاثاري الفرنسي (تورور دانجان) (Tura Dangan) , وقد استطاع (اوركاجينا) اعادة العدل والحرية للمواطنين وازال عنهم المظالم والاستغلال[17] , وقد اعتبرت تشريعات (اوركاجينا) هي الوثيقة الت صرحت بحقوق الإنسان عند العراقيين القدماء الذين سبقوا غيرهم بآلاف السنين [18], ثم جاء بعد اصلاحات (اوركاجينا) والتي سبقت تشريعات حمورابي (قانون اورنو) 2111 – 2003 ق.م وهو الملك الذي قام بتاسيس سلالة أور الثالثة [19], وقد عثر على ألواح من شتات هذا القانون في مدينة نفر وقسم آخر من مدينة أور[20] , وقد احتوى هذا القانون على (31) مادة وحيث تشابهت بعض مواده مع مواد قانون حمورابي وخصوصاً في مسألة حقوق المرأة[21], ثم جاء بعد قانون اورنو, قانون (لبث عشتار) 1934 – 1924 ق.م خامس ملوك سلالة آيسن وهذا القانون هو الاخر الذي تأثرت به تشريعات حمورابي حيث اتضحت التأثيرات بخمسة عشر مادة تقريباً[22], ثم اعقب قانون لبث عشتار , قانون اشنونا (بلالاما) وقد عثر على نسخة يدوية منه عام 1945م في تل حرمل قرب بغداد من قبل المؤسسة العامة للآثار وهو يسبق قانون حمورابي بنصف قرن محتوياً على (61) مادة وقد تأثر قانون حمورابي بمواد هذا القانون بأثنين وثلاثين مادة[23].

ويبدو من خلال دراسة مختصات هذه المواد القانونية بأن حضارة بابل كانت قد تأثرت بخلاصة الحضارات القانونية على يد الملك حمورابي الذي أدخل وحذف كل ما من شأنه ان يصار إلى صياغة قانون متكامل يخدم الإنسان العراقي القديم وهذا بالطبع يعكس لنا ضخامة التراث الحضاري في بابل العظيمة على يد أكبر سلالات الممالك آنذاك .

وهنالك رواية تؤكد أهمية (بابل) التاريخية من حيث اعتبارها المدينة التي بناها الجبار بيور اسب وعندما استكمل بناؤها دعا إليها جمع من العلماء وبنى لهم اثني عشر قصراً على عدد البروج وأطلق على تلك القصور أسمائهم , فلم تزل عامرة حتى مجيء الأسكندر وهو الذي خربها[24] .

المطلب الثاني : أهمية بابل التاريخية

ومن دواعي أهمية (بابل) التاريخية كونها مسقط رأس النبي إبراهيمX , وهي المدينة التي ألقي بها X بالنار وتقع على شاطئ نهر الفرات بأرض العراق , وبها جب يقال له جب دانيال X , وقيل هي بئر هاروت وماروت[25] .

ولعل ما أشار اليه المسعودي من قول يكشف لنا عن أهمية الاقليم الرابع الذي هو (بابل) فيقول : ((ونحن ذاكرون الاقليم الرابع وما بان به عن سائر الاقاليم وجلال صنعه وشرف محله اذ كان به مولدنا وفيه منشأنا وكنا أولى الناس بتقريظه والابانة عن شرفه وفضله وان كان ذلك من أشهر من أن يُحتاج فيه إلى اطناب ولا يحويه لعظمته كتاب))[26], كما يستفاد من هذا النص أيضاً اشارة المسعودي إلى أن مولده كان في العراق وهو مما ألقم الكثير حجراً ممن أدعى عدم عراقية هذا المؤرخ العظيم .

كما أشارت الأخبار أيضاً إلى شدة بأس وشجاعة أهل هذا الاقليم , وذكر بأنه يسمى ((بلد أريان شهر))[27] , وإذا قمنا بدراسة معنى هذا المصطلح وجدنا بأن السباع تدعى بالنبطية (أريان) أحدها (أريا) فتم تشبيه اهلها بالسباع لشدة بأسهم وشجاعتهم وعظمة ملكهم وكثرة جنودهم [28] .

المطلب الثالث : الاكتشافات الأثرية

أما الاكتشافات الاثرية المعاصرة فكان لها دور بارز في بيان اهمية (بابل) , حيث ان ما اكتشفه العالم الانكليزي هنري ورولنسون (Henry Worolinson) سنة 1848م في الجانب الغربي لمدينة بغداد المقابل لما هو معروف اليوم بالبلاط الملكي في الجانب الشرقي , اكتشف في الكرخ بقية حصن مبني بالاجر المحفور عليه اسم (نبوخذ نصر) وفتوحاته في مدينة اسماها (بعل داد) وهي (بغداد) , وكانت (بعل داد) لا تزال قائمة الا انها كانت مشرفة على الخراب يوم فتح العرب المسلمون العراق وجعلوا (الكوفة) عاصمة للبلاد , وظلت (الكوفة) إلى بداية العصر العباسي , بعد ان عقد الخليفة المنصور النية على بناء مدينة جديدة فساح

في وادي دجلة شمالاً يبحث عن مكان يسره فآثر السهل المجاور لـ(بعل داد) وكانت هي بغداد[29] , وبناءً على هذا الاكتشاف يتضح ان نشوء بغداد قد سبق أعمارها, وان حضارة (بابل) تعتبر اسبق من حضارة (بغداد) بدليل وجود اسم (نبوخذ نصر) على الآجر الذي بني به الحصن البغدادي , وعليه تعد (بغداد) بابلية الأصل والحضارة , ويؤكد هذا المعنى ما ذهب اليه ابن قتيبة بقوله ((وقد استعملت أنقاض بابل في تعمير بغداد في عهد ابي جعفر المنصور))[30] .

وبناءً على ما ذكرناه من التعريف بـ(بابل) وبيان اهميتها وفضلها والاقوال فيها نستطيع ان نحدد مراحل تلك الاهمية لهذا الاقليم وفق عهود ثلاثة وهي: [31]

1- سلالة (بابل) الاولى التي امتازت بحكم حمورابي العظيم وشريعته الكبرى , التي كانت تمثل احد الدساتير القانونية العالمية الكبرى آنذاك , والتي أفادت في سَنْ الشرائع في العالم والتي تعد من اعظم ما توصلت اليه البشرية في عصره من خطوات قانونية في تنظيم الحياة الاجتماعية .
2- السلالة الباشية التي حكمت خلال الفترة (1169 – 1101 ق.م) فقد ارتقت (بابل) في هذه السلالة أوج عظمتها وخاصة في حكم (نبوخذ نصر الأول) الذي فاق الملوك الذين سبقوه في القوة والبأس من الملوك الكوشيين الذين حكموا بابل زهاء ستة قرون والذين لم يستطيعوا قهر جيرانهم الاشوريين المنافسين لهم في الشمال .
3- دولة (نابوبلصر) الكلداني المتمثلة بإنشاء دولة في بابل الجديدة سنة 625 ق.م, ثم ضعفت وعجزت هذه الدولة عندما اتفق الماريون والكلدانيون على مهاجمة نينوى حيث سقطت في أيديهم سنة 606 ق.م وكاد (نبوخذ نصر الثاني) حفيد (نابوبلصر) ان يعيد (بابل) بأسرها , ولكن الملوك الذين خلفوه لم يسلكوا طريقته فقادوا (بابل) إلى الفشل اضافة لتمتع المدينة باساليب الترف , والسلبيات التي تعرضت لها الدولة البابلية .

ولا بد من الاشارة إلى ان (نبوخذ نصر الثاني) هذا هو الذي غزا أورشليم وسبى الاسرائليين وقام بأسرهم سنة 586 ق.م .

وبناءً على ما تقدم يتضح لنا أهمية وفضل اقليم (بابل) بشكل مقتضب وفقاً لما اتضح في المؤلفات والكتب العربية منها والاجنبية آملين في من اراد المزيد ان يطلع على الكتب المذكورة للوقوف على ذلك التراث تفصيلاً .

المبحث الثاني
بابل في القرآن الكريم

المطلب الأول : بابل في القرآن الكريم تصريحاً

وردت لفظة (بابل) في القرآن الكريم صراحة في قوله تعالى {وَاتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَـكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولاَ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلاَ تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ}[32] .

وهذه الإشارة الصريحة لذكر بابل في القرآن الكريم إنما تعني اقليم (بابل) الذي هو في أرض العراق عند العلماء واهل التفسير , وان (بابل) عندهم هي ارض العراق عموماً, ولعل ياقوت قد أشار لهذا المعنى بدقة متناهية في قوله ((والعراق هي بابل))[33] , وذكر القرماني ما نصه ((ان بابل أرض العراق كلها))[34] .

كما ان التوراة لم تغفل عن ذكر (بابل) , وقد اطلقت عليها اسم (كوثى) وقد عني بها أرض بابل [35] , و(كوثى) التي ورد ذكرها في التوراة لم تكن أرض كبقية البقاع , وانما هي مسقط رأس النبي إبراهيم X[36] , وبهذا يكون نزول إبراهيم Xبين ثناياها تشريفاً لها وتقديساً وتمييزاً .

أما بخصوص تفسير الآية التي ورد بها ذكر (بابل) فيقول صاحب مجمع البيان ان المقصود بـ(بابل) هي بابل العراق , نزل بهما ملكان هما هاروت وماروت وقصة نزولهما بأرض بابل هي قصة تداولتها التفاسير على اختلافها عند تصديها لشرح وتفسير هذه الآية التي ورد فيها لفظ (بابل) , وجدير ذكره ان هذه الآية هي الوحيدة في القرآن الكريم الذي ورد فيها لفظ (بابل) صريحاً بهذه التسمية .

وقيل ان (بابل) هذه تعني غير (بابل) العراق وهذا القول ينتابه الضعف بدليل ان القرطبي يفند بعض هذه المدعيات والاحتمالات بقوله ((وقال قوم : هي بالمغرب – أي بابل))[37] , يقول القرطبي ((قال ابن عطية : وهذا ضعيف))[38] .

أما صاحب الكشاف فعند تصديه لتفسير الآية فلم يذكر تفسيراً للفظة (ببابل) وما المقصود منها , وانما اكتفى بقوله ان الملكين هاروت وماروت ((كانا ملكين بابل)) . واكتفاء الزمخشري بذكرها – أي بابل – فقط له دلالات من وجهة نظرنا وهي كما يلي :

أ- انه لم يأخذ بالأقوال التي تحتمل كون (بابل) تعني غير (بابل) العراق , والا لذكر هذه المدعيات , لأن الموقع الذي يختص به النص من أولويات مهام المفسر الكفوء , وان الزمخشري يشار له بالكفاءة بهذه المختصات من بعد النظر ودقة البلاغة في محتويات وشموليات النص المشرَّف وهذا هو المشهور في وصف تفسيره .

ب- انه سلّم بالمشهور من الروايات بأن المقصود بـ(بابل) عند اغلب العلماء سواء كانوا على مستوى التفسير ام غيره بأنها – أي اللفظة – انما المعني بها هو إقليم بابل العراق , وانما ذهب الجمع من المفسرين إلى ابعد من ذلك واعتبروا بأن (بابل) انما تعني العراق كله [39] .

وساق لنا صاحب الميزان ثلاثة اقوال في (بابل) ذكر أولها قائلاً ((هي بابل العراق))[40].

ولعل قول عبد الله بن مسعود لأهل الكوفة عند خطابه اليهم بقوله ((أنتم بين الحيرة وبابل))[41] قد حدد لنا اقليم (بابل) تماماً من حيث المساحة والموقع , لأن الخطاب موجه إلى أهل الكوفة , والكوفة هي إقليم معروف بانتمائه إلى العراق , وان الحيرة هي الأخرى تمثل أحد أركان المثلث الحضاري في العراق , فصار من المقطوع به أن (بابل) في النص أعلاه إنما يقصد به الإقليم العراقي الموجود حالياً .

أما النص القرآني المشرف الذي وردت فيه لفظة (بابل) هل كان مدحاً أم قدحاً فهذا ما حدده السياق الوارد في النص الشريف والذي يخلو من الجانبين – المدح و الذم – وإنما المعنى الذي ورد فيه النص المشرف جاء بياناً لقصة الملكين هاروت وماروت في أرض بابل ولقاءهما بامرأة اسمها (الزهرة)[42] , وآل ما آل إليه هذا اللقاء بين الثلاثة إلى النتائج الوخيمة التي أفصح عنها أغلب أهل التفسير في كتبهم فنحيل من أراد الإطلاع على تفاصيل القضية هذه , إلى تلك الكتب لأن مهمتنا لم تتعلق بهذا السياق من البحث .

المطلب الثاني : بابل في القرآن الكريم تلميحاً

إذا أخذنا بنظر الاعتبار المنحى المشترك عند أغلب العلماء من أهل التفسير وذوي الاختصاص في علوم التاريخ وغيره باعتبار إقليم (بابل) هو العراق[43], وقد أشرنا لبعض من ذهب إلى ذلك منهم وهم كثيرون , فمثلاً ذهب إلى ذلك صراحة ياقوت الحموي [44] والقرماني[45] , والطوسيبقوله ان بابل هي بابل الكوفة[46] , وكذلك ياقوت الحموي الذي يقول بأن ((العراق هي بابل))[47], والقرماني الذي يذكر بقوله ((ان بابل أرض العراق كلها))[48] , نستنتج أن بابل ((أعظم أقاليم الأرض منزلةً وأجلها صفة وأغزرها جباية وأكثرها دخلاً وأجملها أهلاً وأكثرها أموالاً وأحسنها محاسناً وأفخرها صنائعاً , وأهله فأوفرهم عقولاً , وأوسعهم حلولاً , وأفسحهم فطنة في سالف الزمان والأمم الخالية))[49] .

وبناءً على ما ذكرناه من ان إيضاحات في أقوال أهل التفسير والتأريخ , نستطيع القول بأن ما ينطبق على (بابل) ينطبق على ما في العراق من مواقع وبقاع وبما أن أصحاب الروايات في تفاسيرهم وتواريخهم تشير إلى ان هنالك مواقعاً في العراق ورد ذكرها في كثير من النصوص القرآنية المشرفة ولكن ليس بالتصريح بل بإشارات أو بألفاظ أخرى تدلل على تلك المواقع كأرض نينوى (الموصل) , والكوفة , وهذه المواقع بطبيعة الحال هي (بابل) كما صرح بذلك أهل الفن في أقوالهم التي تصدينا لذكرها آنفاً . لذلك وبناءً على ما صرح به هؤلاء فأن ذكر (بابل) يعدُّ ذكراً لها – أي لهذه المواقع – وذكر هذه المواقع هو ذكر لـ(بابل) أيضاً .

ومن هذه النصوص المشرفة فأن القرآن الكريم ذكر أرض نينوى– الموصل – بقوله تعالى : ((فَلَوْلاَ كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ))[50] .

ويذكر المفسرون في أحد الروايات بأن القرية التي نفعها ايمانها هي قرية الموصل الذي ارسل اليها النبي يونس[51], ومن الجدير بالذكر ان قرية يونس Xقد تفردت لوحدها بصفة المغفرة من الله تعالى عطفاً عليهم دون باقي القرى , وقد ((كشف الله عنهم

العذاب بعد ان تدلى عليهم))[52], وقد ذكر القرآن الكريم عدد أفراد هذه القرية التي آمنت بقوله تعالى : ((فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاء وَهُوَ سَقِيمٌ ! وَأَنبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ! وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ))[53], وبهذا يكون ذكر هذه القرية هو ذكر لبابل لأنهما جزآن من العراق وهذا من جهة , ولأن بابل هي العراق من جهة أخرى .

أما النص القرآني المشرف الاخر الذي أشار لـ(بابل) تلميحاً هو قوله جلت قدرته: ((وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطاً إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ))[54] .

والضمير في (ونجيناه) في النص الشريف يشير إلى النبي إبراهيم فقد نجيا – إبراهيم ولوط H– من اعدائهما النمرود وقومه من أرض العراق إلى الأرض المباركة , واتفق على ان الأرض التي نجا منها النبيان المذكوران هي أرض (كوثى) بالعراق وان (كوثى) هي أرض (بابل) التي كان فيها النمرود[55] .

هذا ولا تزال آثار هذه المنطقة باقية إلى يومنا هذا في (بابل) , وقد ورد اسم هذه القرية (كوثى) في التوراة وعني بها أرض (بابل)[56], وهذا ما رجحه صاحب المراصد بقوله : ((وكوثى بالعراق في موضعين : كوثى الطريق , وكوثى : ربا , وبها مشهد إبراهيم الخليل Xوهما قريتان وبينهما تلول من رماد يقال انها رماد النار التي أوقدها نمرود لإحراقه))[57] .

ويلاحظ من سياق النص أعلاه بأن المؤلف كان دقيقاً في الوصف حيث ذكر بأن (كوثى) بنفسها قد تفرع منها قرى أخرى نذكر منها نوعان هما كوثى الطريق , وكوثى ربا حسب ما ورد في روايته .

كما ورد أسم (بابل) بصورة غير مباشرة في قوله تعالى : ((أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىَ يُحْيِـي هَـذِهِ اللهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللهُ مِئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِئَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى العِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْماً فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ))[58] , والقرية الخاوية التي ورد ذكرها في هذا النص الشريف وهي (بابل) حينما كان ((بختنصر غزا بني اسرائيل فسبى منهم أناساً كثيرة فجاء بهم وفيهم عزيز بن شرخيا وكان من علماء بني اسرائيل فجاء بهم إلى بابل , فخرج ذات يوم في حاجة له إلى دير هرقل على شاطئ دجلة , فنزل تحت ظل شجرة وهو على حمار له, فربط الحمار تحت ظل الشجرة , ثم طاف بالقرية فلم ير بها ساكناً وهي خاوية على عروشها فقال : أنّى يحي هذه الله بعد موتها))[59] .

وهنالك آيات اخرى كثيرة ذكرت (بابل) تلميحاً وهي المختصة بذكر مدن أخرى متاخمة لبابل كـ(الكوفة) مثلاً التي دلت عليها آيات اعتبرها المفسرون تشير إلى ذكر هذه المدينة, حيث روي ان ماء الطوفان نبع ((في التنور فعلمت به امرأة نوح فاخبرته– قال – وكان ذلك في ناحية الكوفة))[60], كما روي ((عن الشعبي انه كان يحلف بالله ما فار التنور إلا من ناحية الكوفة))[61] .

ولامتداد ارض الكوفة على طول الاقليم الرابع الذي هو اقليم (بابل) حيث عُدّت ((الكوفة: المصر المشهور بأرض بابل من سواد العراق))[62].

وقد ذهب صاحب الميزان انه ((كان منزل نوح وقومه في قرية على منزل الفرات مما يلي غربي الكوفة))[63] .

وبناءً على ما سبق من ان (بابل) هي ارض (الكوفة) والعراق يعني (بابل) , فهذا باجمعه يشير ان النصوص القرآنية المشرفة التي نزلت بهذه المعايير تشير إلى ذكر (بابل) بصورة غير مباشرة , وعليه تكون ذكرٌ لهذا الاقليم بالتلميح لا بالتصريح .

هوامش البحث

1- البقرة / 256
2- البقرة / 256
3- الكافرون / 6
4- الرحمن / 10
5- الدينوري : الاخبار الطوال : 1 وما بعدها
6- الكتاب المقدس : العهد القديم : 12
7- م.ن : 12
8- ياقوت الحموي : معجم البلدان : 310/1
9- م.ن : 309/1
10- حنا الفاخوري وخليل الجر : تاريخ الفلسفة العربية 17
11- دروثي مكاي : مدن العراق القديمة : 34
12- م.ن : 35
13- م.ن : 35
14- حنا الفاخوري وخليل الجر : تاريخ الفلسفة العربية : 17
15- شعيب احمد الحمداني : قانون حمورابي : 13
16- م.ن : 14
17- فوزي رشيد : الشرائع العراقية العراقية القديمة : 11 وما بعدها
18- عامر سليمان : القانون في العراق القديم : 36/1
19- شعيب أحمد الحمداني : قانون حمورابي : 14
20- م.ن : 14
21- م.ن : 15 وما بعدها
22- م.ن : 16 وما بعدها
23- م.ن : 18 وما بعدها
24- ياقوت الحموي : معجم البلدان : 310/1
25- القرماني : أخبار الدول : 433
26- المسعودي : التنبيه والاشراف : 31 وما بعدها
وينظر / الدينوري : الأخبار الطوال : 2
27- الدينوري : الأخبار الطوال : 3
28- المسعودي : التنبيه والاشراف : 34
29- أمين الريحاني : قلب بغداد : 38
30- الدينوري : الأخبار الطوال : 4
31- دروثي سكاي : مدن العراق القديمة : 49 وما بعدها
وانظر/ أحمد سوسة : حضارة العراق : 87
صالح جبار القريشي : المواقع والبلدان : 182
32- البقرة/ 102
33- ياقوت الحموي :معجم البلدان : 95/4
34- القرماني :اخبار الدول : 433
35- الكتاب المقدس : العهد القديم : 471
36- البغدادي : مراصد الاطلاع : 1185/3
37- القرطبي : الجامع لاحكام القرآن : 471/1
38- م.ن : 471/1
39- ينظر / ياقوت الحموي : معجم البلدان : 95/4
القرماني : أخبار الدول : 433
القرطبي : الجامع لاحكام القرآن : 230/1
40- الطباطبائي : الميزان : 230/1
41- القرطبي : الجامع لأحكام القرآن : 471/1
42- ينظر / القرطبي : الجامع لاحكام القرآن : 470/1
الطباطبائي : الميزان : 235/1
43- ياقوت الحموي : معجم البلدان : 95/4

وينظر / القرماني : اخبار الدول : 433
44- ياقوت الحموي : معجم البلدان : 95/4
45- القرماني : اخبار الدول : 433
46- الطوسي : التبيان : 374/1
47- ياقوت الحموي : معجم البلدان : 95/4
48- القرماني : اخبار الدول : 433
49- ابن حوقل : صورة الأرض : 234
50- يونس / 98
51- ينظر / الطبرسي : جامع البيان : 171/11
الزمخشري / الكشاف : 371/2
القرطبي : الجامع لاحكام القرآن : 384/8
52- الطبرسي : جامع البيان : 171/11
53- الصافات / 145 , 146 , 147 , 148
54- الانبياء / 71
55- ينظر / الطبرسي : جامع البيان : 47/17
الطوسي : التبيان : 264/17
الزمخشري : الكشاف : 126/3
القرطبي : الجامع لاحكام القرآن : 35/11 (الطبعة الثالثة : مصر : 1967م)
56- الكتاب المقدس : العهد القديم : 471
57- البغدادي : مراصد الاطلاع : 1185/3
58- البقرة / 259
59- القرطبي : الجامع لاحكام القرآن : 288/3(الطبعة الثالثة : مصر : 1967م)
60- الطبري : التاريخ : 95/1
61- م.ن : 95/1
62- البراقي : تاريخ الكوفة : 161
63- الطباطبائي : الميزان : 250/12

مصادر البحث ومراجعه

القرآن الكريم

-1	البراقي (حسين بن احمد النجفي) (ت1332هـ)	تاريخ الكوفة : منشورات المكتبة المرتضوية : المطبعة الحيدرية : النجف الاشرف – العراق : 1356هـ: (بدون مطبعة)
-2	البغدادي (صفي الدين عبد المؤمن بن عبد الحق) (ت739هـ)	مراصد الاطلاع على اسماء الامكنة والبقاع : تحقيق محمد علي البجاوي: منشورات دار المعرفة للطباعة : الطبعة الاولى: بيروت – لبنان : 1374هـ - 1955م .
-3	الحمداني , شعيب أحمد	قانون حمورابي: منشورات مكتبة السنهوري : بغداد – العراق : 1987 م
-4	ابن حوقل (ابو القاسم النصيبي) (ت367هـ)	صورة الارض : طبع في مدينة ليدن بمنطقة بريل : 1928م: (بدون مطبعة ودار نشر) .
-5	الدينوري (احمد بن داود الدينوري) (ت282هـ)	الاخبار الطوال : تحقيق عبد المنعم عامر : منشورات دار احياء الكتب العربية : الطبعة الاولى : مصر : 1960م .
-6	رشيد , الدكتور فوزي	الشرائع العراقية القديمة : منشورات دار الرشيد : بغداد – العراق : 1979
-7	الريحاني , أمين	قلب بغداد : منشورات دار صادر : بيروت – لبنان : 1935م: (بدون طبعة ومطبعة)
-8	الزمخشري (جار الله محمود بن عمر) (ت528هـ)	الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الاقاويل في وجوه التأويل : منشورات دار الكتاب العربي : بيروت – لبنان : (بدون طبعة وسنة طبع)
-9	سكاي, الدكتور دروثي (Sky (Dr.Druthy	مدن العراق القديمة : ترجمة وشرح وتعليق يوسف يعقوب مسكوني : الطبعة الثالثة : مطبعة شفيق : بغداد – العراق : 1380هـ - 1961م .
-10	سليمان , الدكتور عامر	القانون في العراق القديم : مطبعة جامعة الموصل : 1977 م .
-11	سوسة , الدكتور أحمد	مدن العراق القديمة : ترجمة وشرح وتعليق يوسف يعقوب مسكوني : الطبعة الثالثة : مطبعة شفيق : بغداد – العراق : 1961م – 1380هـ .
-12	الطباطبائي , محمد حسين	الميزان في تفسير القرآن:منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات:الطبعة الثانية : بيروت ـلبنان:1391هـ1971م
-13	الطبري (ابو جعفر محمد بن جرير) (ت310هـ)	جامع البيان عن تأويل آي القرآن : منشورات مكتبة ومطبعة البابي الحلبي وأولاده : الطبعة الثانية : مصر : 1370هـ - 1954م .
-14	المؤلف نفسه	تاريخ الأمم والملوك : منشورات دار القاموس الحديث للطباعة: مكتبة البيان : بيروت – لبنان : (بدون طبعة وسنة طبع) .
-15	الطوسي (ابوجعفر محمد بن الحسن) (ت460هـ)	التبيان في تفسير القرآن : تحقيق احمد حبيب العاملي : مطبعة النعمان : النجف الاشرف – العراق : 1382هـ - 1963م : (بدون طبعة ودار نشر) .
-16	الفاخوري , حنا والدكتور خليل الحجر	تاريخ الفلسفة العربية : منشورات مؤسسة بدران وشركاه : بيروت – لبنان
-17	القرطبي (ابو عبد الله محمد بن احمد الانصاري)(ت671هـ)	الجامع لأحكام القرآن : منشورات دار الكتاب العربي للطباعة : الطبعة الثالثة : مصر : 1387هـ - 1967م .
-18	القرماني (ابو العباس احمد بن يوسف بن احمد الدمشقي) (ت1019هـ)	أخبار الدول وآثار الأول في التاريخ : منشورات عالم الكتب : بيروت – لبنان : (بدون طبعة ومطبعة وسنة طبع)
-19	القريشي , الدكتور صالح جبار	المواقع والبلدان في القرآن الكريم – دراسة تحليلية مقارنة – أطروحة دكتوراه : الطبعة الأولى : بغداد – العراق : 1423هـ - 2004م .
-20	الكتاب المقدس (العهد القديم)	منشورات دار الكتاب المقدس في الشرق الاوسط : بيروت – لبنان : 1995م .
-21	المسعودي (ابو الحسن علي بن الحسين بن علي) (ت346هـ)	التنبيه والاشراف : منشورات دار التراث العربي : بيروت – لبنان : 1388هـ - 1968م : (بدون طبعة ومطبعة)
-22	مكاي , الدكتور دروثي (Dr. Makay (Drothy	مدن العراق القديمة : ترجمه وشرحه وعلق عليه يوسف يعقوب مسكوني : الطبعة الثالثة : مطبعة شفيق : بغداد – العراق : 1380هـ - 1961م .
-23	ياقوت (شهاب الدين ابو عبد الله بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي)(ت626هـ)	معجم البلدان : منشورات دار احياء التراث العربي : بيروت – لبنان : (بدون طبعة ومطبعة وسنة طبع)